العقلُ المُسْلم مكانته وسماتُه

أ.د. محمود توفيق مُحمد سَعد[١٧]

أمّا قبلُ: في سورة التّكريمِ الإلهيِّ لأكرم خلقِ الله تعالى يقُولُ -سُبْحانَهُ وبِحمْدِه-:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٠)

وفي طليعة ما كُرّم بِه بنو آدم -عَليْه السّلامُ- (العقل) الذي جعله الله -سُبْحانَهُ وبِحمْدِه- مناط التّكليف بعبادتهِ المفضِي إلى مزيدٍ مِن التّشريفِ لِمنْ قَامَ به، وجعل تفاضلَ بني آدم في شكرِه جلّ جلالُه عليْه أكثر ما يتفاضَلون فيه وأوسَعهم، فكثيرٌ من النّاسِ يغفلون عن شكرِ اللهِ -عَزّ وعَلا- على نعمةِ (العَقل) شكرًا عمليًّا متمثّلًا في العرفان المُحيطِ بما خلق له (العقل) وفي استعمالِه فيما خلقَ له، وقد جاء قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ في أحدَ عشر موضِعًا، وما العلمُ إلّا سثمرةُ شكرِ الله تعالى على نعمة (العقل) بإعمالِه في ما خلق له تفكيرًا متدبّرًا يبدأُ ولا ينتهِي.

وإذا ما كان كثيرٌ من النَّاسِ لا يُعملون عقُولَهم، فإنّ ثمّ ثلة تذهب شططًا إلى الغلوّ لا في شكرِ الله تعالى على نعمةِ العقلِ علَى المَنهج الأمْثلِ؛ بل فِي جعلِهِ المصدرَ الأوحدَ للمعرفةِ، وفي جعله ذا سلطانٍ على كل شيْءٍ، وليس لشيْءٍ بتّةً عليْه سلطانٌ، إفراطٌ وتفريط: فريق يعطِّلُه وفريقٌ يُقدّسُه؛ بلْ يتخذه إلهًا، أفرأيتَ مَن اتّخذَ عقلَه إلهَه؟!

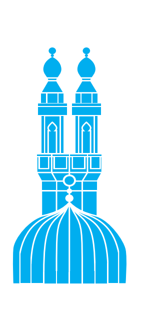
لا رَيبَ في أنَّ إعمالَ العقل فيما خُلق لِيعملَ فيه إنّما هُو عبادةٌ تبنى عليها كلّ عبادةٍ ومنجاةٌ منْ كلِّ ضُرٍّ فِي الدَّارين، فليسَ مناطُ المحاورةِ هنا إعمال العَقل أوْ عدم إعماله؛ فَمَن يذهبُ إلى عدم إعمالِه غيرُ شاكر لله -تعالَى- على هذه النّعمة، وإدمانُ الكفر بالنّعمةِ يفضِي -لا محالةَ- إلى الكفرِ بالمُنعِم -جلّ جلاله-.

سَواءٌ منْ يدعُوك، وهو غير نبيّ مرسلٍ من الله -تعالى- إلى أن تتبعَه دون مراجعةٍ وأن تستمع له دونَ غيرِه، ومنْ يدعوك إلى أن تستمعَ إلى عقلِك وحدَه، فتجعله إلهك، كلٌّ يُلقِي بك فِي ضلالٍ مُبينٍ مُبيرٍ.

فرقٌ جليٌّ بيْنَ إعمال العقل فيما خلقَ له، وفق أصولٍ وضوابط وَبين ما يُسمّى بالعَقلانيّة.

(العقلانية) في مفهومِها (الفلسفيّ) لا تجعلُ رسالةَ العقلِ (الفهمَ) بكلِّ ما تحملُه هذه الكلمةُ منْ معانٍ جليلةٍ، فالفهمُ أعلى مراتبِ الإدراك العقليّ، بلْ هِيَ تجعلُ له مَع ذلِك سُلْطانَ الحُكمِ الفَصلِ المُبْرَمِ، وتَجعلُ مِن العَقلِ مَصدرَ المَعرفة، وعيارَها، فليس (الوحي) مصدرًا من مصادر المعرفة،

(١٧) عضو هيئة كبار العلماء.



فكان حسنًا –عندي– البصرُ بحقيقة ما يُسمّى بـ(العقلانية) المناوئة للوحي، أو المتحكمةِ فِيه، ثمَّ الوَعي بمكانة (العقل المسْلم) وسِماته المائزة بيْنه وبيْن سائرِ العقولِ الأخرَى، ففي هذا ما يُمكّن المَرْءَ مِنْ أن يبصَر موقِع عقلِه في مُمارستِه العمل من الحقّ والخيرِ اللذين هما عمودُ ما يُعرفُ بـ(الجلال) الّذِي يتولّدُ منْه (الجمال).

لم تكُن (العقلانيّة) وليدة هذا العصرِ؛ بلْ هي قديمةٌ قدمَ التفكير الفلسفيّ، وكانت تقوم في وجه (الخرافة) و(الأساطير) ثم امتدتْ، فقامت في وجه (الدّين) ولا سيّما حين بات الدّين عند الكنيسةِ الأوربيّة (كثْلكةً) تجعلُ من (البابويّة) حاكمة باسم الإله، تحتكرُ تفسير كتابهم المقدس عندهم، وجعلت الفهم البابوي عديلًا لهذا الكتاب في القداسة والعصمة، فعطّلت العقول، تحولّت (العَقلانيّة) إلى فلسفةٍ متمرّدةٍ على (الكثْلكة) والقداسةِ البابويّة، وذهبتْ إلى أنّ (العقل) هو مصدرُ المعرفة في كلّ مجالات الحياةِ، وهو عيارُها، فما لا يُمكن إدراكُه عقلًا، لا يُسلّمُ بوجودِه، فهو وحده عندها الّذي يُمكنُه من الوصول إلى معرفة الحياة والوجود بطريقِ الاستدلال العقليّ نابذًا ما يُسمّى بالوحي، أو التّجارب البشرية.

العقلُ عندَهم هُو الّذي يخضع له تفسيرُ الحياة والوجود، وليس شيْءٌ آخرُ بصالحٍ لذلِك.

(فالعقلانيّة) بهذا ردّ فعلٍ لمغالاة الكنيسة في تقديس رجالِها، وإقصاءِ عقول شَعبها، فهي بهذا ليس لها مقتضٍ في الحياة المُسْلِمة؛ بواعثُ وجودها عندهم ليْسَ لها وجودٌ بتّةً عندنا، فنقلُها منْ سياقِها الّذي نبتتْ فيه إلى السياقِ الإسلاميّ إنّما هو الخطيئة العلمية الّتي تتعاندُ مع العقل الصّريح، فالقائلون بـ(العقلانيّة) بهذا المفهومِ في السّياقِ الإسلاميّ هم ناقضون لها، قائمون على هدمِها؛ لوْ كانُوا يَعْقِلون.

لا يجعلُ (الإسلام) ولا علماؤه ما يقوله الأعيان من علمائه عديلًا للوحي، ولا يمنحون رأي عالمٍ وإن كان العليّ في بَابِه قدسيّةً؛ بل كل أعيانهم على أن رأيهم صوابٌ يحتملُ الخطأ، ورأي غيرِهم يحتملُ الصّواب، وكلهم يرى في محاورة آرائهم ومناقشتها ونقدها من الحُسْنى، ومن التعاون علَى البرّ والتقوى وإصلاح الحياةِ.

ذلك أمرٌ قائمٌ لا يَغيبُ ولا يغيمُ في الحياة العلميّة والمعرفية المسلمةِ في كلّ مجالاتها، وما كان كذلك لا يُمكن أن يكونَ وجودٌ للعقلانيّةِ بمفهومها في السياقِ الفلسفيّ الغربيّ في المجتمعِ المسلم.

(يُتبع)

